الفصل السادس

الروح والنفس عند إخوان الصفا وابن سينا

أولاً: من هم إخوان الصفا؟

ذكر أبو حيان التوحيدى وهو من المعاصرين لإخوان الصفا ويعرف نفرًا منهم معرفة شخصية، قال عنهم فى مقايساته[1] حيث قال: ((سألنى وزير صمصام الدولة فى حدود سنة ٣٧٣هـ (٩٨٣م) عن زيد بن رفاعة)) ومذهبه. فقال يومذاك أبو حيان – وكان يعرف زيد بن رفاعة ويعرف أصحابه على ما يبدو – ((لا ينسب إلى شىء ولا يعرف له حال ((إذ تكلم فى كل شىء)) وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى – ويعرف بالمقدسى – وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى، وأبو أحمد المهرجانى، والعونى وغيرهم، وصحبهم وخدمهم.

وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله. وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، ثم قال: وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها وسموها ((رسائل إخوان الصفا)) وكتموا فيها أسماءهم وبثوها فى الوراقين ووهبوها للناس)).

هذا كل ما وصلنا من إشارة تاريخية إليهم، وكل التعليقات الأخرى التى نقلها عنه القفطى فى كتابه أخبار الحكماء لا تخرج فى جوهرها عما ذكره أبو حيان التوحيدى.

ويزعم إخوان الصفا أن ((جماعتهم)) ترجع إلى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالوا

---

(١) المقايسات، ص٤٥.

ذلك فى رسائلهم[1]، وبذلك فهم يزعمون أنهم من نسل المسلمين الأوائل، وأنهم إنما كشفوا عن أنفسهم أو أرادوا أن يكشفوا عن أنفسهم – فى القرن الرابع الهجرى.

وقد نشأ هؤلاء الإخوان فى العراق، وربما بالبصرة على وجه التحديد، غير أن هذا إنما يدخل فى باب الظن لا من باب اليقين. ولكنهم ذكروا صراحة أن اسمهم مأخوذ من صفوة الإخوة، والرأى أنهم اختاروا اسمهم من باب الحمامة المطوقة فى كتاب كليلة ودمنة[2]، وكانت الصداقة الخالصة هى أبرز صفاتهم حتى ذكروا ((أن صداقتهم قرابة رحم))، وحتى إن أحدهم ليضحى بنفسه فى سبيل إخوانه، وكان مذهبهم هو النظر فى جميع العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية وأنهم لا يعادون علما من العلوم ولا مذهبًا من المذاهب.

وكان إخوان الصفا مسلمين؛ لأنهم نشأوا نشأة إسلامية ثم بنوا فلسفتهم على أساس إسلامى، واعتقدوا أن الإسلام خير الأديان وأن محمدًا عليه الصلاة والسلام خير الرسل.

والواقع أن الدارس لإخوان الصفا ورسائلهم يتضح له بجلاء أن إخوان الصفا كانوا أصحاب ((مذهب فلسفى أخلاقى)) أى جماعة من المتفلسفة الأخلاقيين الذين يرون أن الدين الحقيقى إنما هو الصداقة الصحيحة والمعاملة الحسنة والإحاطة بالعلوم وتنزيه النفس واتباع العقل.

ثانيًا: النفس والروح عند إخوان الصفا:

ويرى إخوان الصفا أن فى الإنسان شيئين متميزين تمامًا: الجسد الذى هو مجموع الأعضاء الظاهرة والباطنة المحسوسة من لحم وعصب ودم وما شاكلها، ثم ذلك الجزء الناطق العاقل، ومن المحرك للجسد المدبر له والمظهر به ومنه أفعالا وأقوالًا وعلومًا. هذا الجزء هو ((النفس)) الغريب أن إخوان الصفا – من بين جميع الفلاسفة – يرون النفس والروح شيئًا واحدًا، وإن كان يسبق إلى الظن أحيانًا أنهم يفرقون بينهما.

وهم يعرفون النفس بأنها جوهرة روحانية بسيطة سماوية شفافة حية بذاتها علامة بالقوة فعالة بالطبع وأنها باقية بعد مفارقة الجسد، إما ملتذة مسرورة فرحانة، وإما مغتمة خاسرة، وجوهر النفس ألطف وأشد روحانية من جوهر النور والضياء، والدليل على ذلك قبوله (قبول جوهر النفس) رسم المحسوسات والمعقولات جميعًا.

أما ((الأنفس الجزئية))، أى نفوس الأشخاص، فإنها أجزاء من النفس الكلية، قالوا

---

(١) رسائل إخوان الصفا، ٤/ ٨٥ و٤/ ٣٠٧.

(٢) الرسائل: ١/ ٦٢ – ٦٣.

((اعلم يا أخى، أن نفسك هى أحد النفوس الجزئية، وهى قوة من قوى النفس الكلية والفلكية و(لكن) لا هى بعينها ولا منفصلة منها. وذلك أن للنفس الكلية أنواعًا كثيرة من الأفعال، منها أفعالها الشخصية التى تظهر من أشخاص الحيوانات وما يجرى على أيدى البشر من الصنائع)).

ثالثًا: أين كانت النفس قبل أن تتصل بالجسد؟

قالوا: ((قد أتى على النفس دهر طويل – قبل تعلقها بالجسد – كانت فى عالمها الروحانى ومحلها النورانى ودارها الحيوانية[1] مقبلة على علتها (التى هى) العقل الفعَّال تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات. وكانت منعمة ملتذة مستريحة مسرورة فرحانة، فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات ((أقبلت تطلب ما تفيض (هى) عليه تلك الخيارات والفضائل)) فأقبلت على الهيولى ((تفيض عليها)) فلما رأى البارى ذلك مكنها من الجسم وهيأه لها)). ولكن إخوان الصفا يعدون لهم النفس من عالم العقل وإقبالها على التأمل فى الهيولى ((جناية)) وتستحق عليها الإخراج من الملأ الأعلى ((عالم الألوهية)). قالوا: ((إن النفس الجزئية لما أهبطت من عالمها الروحانى وأسقطت من مراتبها العالية للجناية، غرقت فى بحر الهيولى وغاصت فى قعر أمواج الأجسام.. فعرض لها (شراء كثير) من الدهشة والأهوال والمصائب)) هذه النفس الجزئية تنزل إلى الجسد ((يوم مسقط النطفة)).

رابعًا: الغاية من حياة النفس فى الجسد:

((النفس فى الجسد كالجنين فى الحرم))، فكما أن الجنين إذا تكامل خلقه فى الرحم خرج منه إلى الحياة الدنيا، فكذلك النفس فإنها تبقى فى الجسد حتى تستكمل فضائلها وتتمكن من بلوغ الكمال بحسب طاقتها. فالنفس تحتاج إلى الجسد حتى ترقى وتتهذب وتتعلم، فإذا ((كانت نفسك فى الدنيا عمياء هى بعد الممات فى الآخرة أعمى وأضل سبيلًا)). ولا ريب فى أن جميع العلوم والمراتب الشريفة تنالها النفس قبل الموت.

ويقول ابن سينا[2] إن لجميع الأشياء طبيعة مزدوجة. فإنها كائنات ممكنة – ليس بالضرورة – وممكنة الوجود وجميعها تعتمد واجب الوجود. والإنسان من مادتين: الجسد والروح. وهذه

---

(١) نسبة إلى الحيوان، والحيوان مصدر بمعنى الحياة الحقيقية قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ – (العنكبوت: ٦٤).

(٢) الإشارات والتنبيهات: طبعة سليمان دنيا (القاهرة ١٩٥٨) ص٤٥٥. بالورقاء (أى الحماقة الرمادية) التى هبطت من العالم الأعلى ولازمت البدن ولكنها لم تزل تتشوق لعالمها الأول. وقد شرحها الإمام عبد الرءوف المناوى (١٠٣١هـ) فى كتاب له.

العقيدة الأفلاطونية التى كان يأخذ بها هو والمتكلمون المسيحيون، كان ترضى نفوس الناس، إنْ من جهة الأخلاق، أو من جهة العقيدة الدينية، ومادة النفس شيء قائم بذاته مغاير للجسد ومستقل عنه. النفس تحتاج إلى الجسد لتكون عاملة وهى جزء من النفس العالمية التى هى الانبثاق الثانى الذى انبثق من الله. كان الانبثاق الأول العقلى العالمى، وكان الانبثاق الثالث المادة فالنفس موجودة، إذن قبل الجسد، وهى جوهر حقيقى، لا مادى، ولا يعتريها فساد، بل هى خالدة. (أرسطو كان ينكر خلود النفس) وانتقال النفس عند الوفاة إلى جسد جديد عن طريق التقميص أمر لا يقره ابن سينا، لأنه كان ينكر التناسخ، وعنده أن هناك أكثر من عقل واحد. وأثر نشاط العقل فى الجسد يبدو فى حركات الرجل وفى ردود الفعل العاطفية فيه.

وعلاقة النفس فى الجسد تبدو بصورة واضحة فى قصيدة لابن سينا فى النفس، وهى قصيدة مشهورة لا يزال الطالب العربى، حتى يومنا هذا، يستظهرها، والفكرة الرئيسية التى تدور القصيدة حولها هى أن النفس البشرية شعاع سماوى يسجن فى ظلام الجسد، ولكنه يحن دومًا للرحيل إلى المصدر الذى صدر عنه.

وكان ابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله (المتوفى سنة ٤٢٨هـ) طبيبًا وفيلسوفًا، وله فى النفس قصيدة رائعة اشتهرت باسم: ((القصيدة العينية فى النفس الإنسانية))، وفيها يرمز إلى النفس ((شرح القصيدة العينية)).

وتقول قصيدة الشيخ الرئيس ابن سينا:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ... ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
محجوبة عن كلّ مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كرهٍ إليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ... أنست مجاورة الخراب البلقع
وأظنّها نسيت عهودًا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... فى ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضّع
تبكى إذا ذكرت جوارًا بالحمى ... بمدامع تهمى ولّما تقطع
وتظل ساجعة على الدِّمَن التى ... درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عافها الشرك الكثيف وصدّها ... قفص عن الأوج الفسيح الأربع

حتى إذا قرب المسير من الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغدت مفارقة لكلّ مخلّف ... عنها حليف الترب غير مشيّع

سجعت وقد كشف الغطا فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجّع

وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يُرفع

فلأى شيء أُهبطت من شامخ ... عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أرسلها الإله لحكمة ... طويت عن الفذ اللبيب الأروع

فهبوطها إن كان ضربة لازبٍ ... لتكون سامعة لما لم تسمع

وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين فخرقها لم يرقع

وهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بعين المطلع

فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنّه لم يلمع

openkandl.com